مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 49 (شتاء 2002)، ص 45

كيف تستعاد المبادرة من أريئيل شارون؟

خير الله خير الله*

لماذا الذهاب بعيداً في تفسير ما يدور حالياً على أرض فلسطين؟ كل ما في الأمر أن أريئيل شارون يحاول تغيير طبيعة الصراع، أي الإيحاء بأن الصراع الدائر حالياً هو بين العالم "المتحضر" و"الإرهاب" بدل أن يكون، وهو فعلاً كذلك، بين الاحتلال من جهة وشعب يريد أن يحقق استقلاله على أرضه الوطنية من جهة أُخرى، أو على الأصح على جزء من هذه الأرض بعدما قبل التخلي عن الجزء الأكبر لغيره، وذلك بهدف واضح هو أن يتركه هذا الغير يعيش بسلام وأمان، أن يعيش متمتعاً بحقوقه المشروعة وبكل ما يترتب على امتلاك جواز سفر صادر عن دولة معترف بها عالمياً من حقوق وواجبات.

ما نشهده حالياً محاولة إسرائيلية لتبرير الاحتلال وتكريسه استناداً إلى المعطيات العالمية والضعف العربي من جهة، وإلى التناقضات الفلسطينية – الفلسطينية من جهة أُخرى. وإذا كان من عائق في وجه المشروع الشاروني، فإن هذا العائق هو شخص ياسر عرفات الذي يتعرض في هذه المرحلة لضغوط لا سابق لها، لا تستهدفه شخصياً بمقدار ما تستهدف المشروع الوطني الفلسطيني. والأكيد أن الحكومة الإسرائيلية استفادت كثيراً من الأخطاء التي ارتكبها رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، ووظفتها في خدمة مشروعها، معتمدة بصورة أساسية على الدعم الأميركي غير المتوقع الذي قدمته لها إدارة الرئيس بوش الابن.

ربما كان الخطأ الأساسي الذي ارتكبه "أبو عمار" كان في كامب ديفيد، حين أخذ في صيف سنة 2000 بالنصائح التي قدمت له من بعض الزعماء العرب، أن عليه ألا يقدم على خطوة إيجابية في اتجاه التوصل إلى تسوية في عهد الرئيس بيل كلينتون. كانت حجة هذا البعض أن شروط التسوية ستكون أفضل في عهد "ابننا" جورج بوش الذي سيخلف كلينتون. وقد نقل وقتذاك عن زعيم عربي قوله لعرفات قبل عقد قمة كامب ديفيد: لماذا نتخلى عن جزء من القدس الشرقية، هل من أجل أن تفوز هيلاري كلينتون بمقعد في مجلس الشيوخ عن ولاية نيويورك بفضل أصوات يهودها، سيأتي بوش الابن وسنستعيد كل القدس الشرقية.

---

* صحافي لبناني.

صحيح أن الرئيس الفلسطيني لم يكن قادراً على التوصل إلى اتفاق مع رئيس الحكومة الإسرائيلية وقتذاك (إيهود براك)، إلاّ إن الصحيح أيضاً أنه اتكل أكثر مما يجب على بعض الزعماء العرب الذين وعدوه أن بوش الابن سيكون أفضل من كلينتون؛ وقد جعله ذلك مقصراً في فهم طبيعة المرحلة وكيفية التعامل معها، فترك فرصة كامب ديفيد تمر من دون أن يوضح موقفه أمام العالم، مخلفاً انطباعاً بأنه رفض عرضاً في غاية الكرم صدر عن براك يتضمن قيام دولة فلسطينية على ما لا يقل عن 95٪ من الضفة الغربية وغزة مع حل شبه معقول لمسألة القدس، وشبه حل لقضية اللاجئين. كان مطلوباً وقتذاك أن يصدر عن الجانب الفلسطيني موقف أكثر وضوحاً، يحدد بالتفصيل الاسباب التي أدت إلى الوصول إلى طريق مسدود في كامب ديفيد. لم يحدث شيء من هذا القبيل، وبقي الانطباع السائد عالمياً أن عرفات أخطأ في عدم قبول العرض الذي قدمه براك، والذي تبين في وقت لاحق انه ليس عرضاً واضحاً، بل مجرد أفكار الهدف منها إحراج الجانب الفلسطيني. ولعل الدليل على أنه لم يكن هناك عرض واضح من رئيس الحكومة الإسرائيلية وقتذاك أن الجانبين، الفلسطيني والإسرائيلي، اضطرا إلى إجراء جولة جديدة من المفاوضات في طابا في الأيام الأخيرة من سنة 2000، توصلا فيها إلى أسس لحل يمكن الانطلاق منها في أي مفاوضات مقبلة. لكن كل شيء في الشرق الأوسط ما لبث أن تغير مع رحيل الرئيس كلينتون ومجيء جورج بوش، ومع رحيل براك ومجيء أريئيل شارون، ومع وقوع أحداث 11 أيلول / سبتمبر 2001 التي غيرت المعطيات العالمية، وغيرت السياسة الأميركية وبدلت أولوياتها وجعلتها تزداد عدائية لكل ما هو عربي ومسلم.

عندما تولى أريئيل شارون السلطة بعد الانتخابات التي جرت في إسرائيل في شباط / فبراير الماضي، كانت التساؤلات تدور حول محور واحد هو المسؤول الأول عن كارثة حرب لبنان سنة 1982، وعن مجزرة صبرا وشاتيلا، تغير أم لا؟ وحدهم الذين قالوا إنه تغير لكن في اتجاه الأسوأ، كانوا على حق. هؤلاء أيقنوا منذ البداية أن شارون الذي اختار توقيتاً ملائماً لزيارة حرم المسجد الأقصى في أيلول / سبتمبر 2000، أي مباشرة بعد فشل قمة كامب ديفيد، إنما أراد أن يفرض أجندته على المنطقة، وعلى الشعب الفلسطيني تحديداً. وكان واضحاً أن شارون لا يرى سوى هدف واحد اسمه ياسر عرفات، الرجل الذي قاومه في بيروت ثم أجبره على الابتعاد عن السلطة بعدما ألحق به هزيمة سياسية لا سابق لها في إسرائيل، هزيمة من النوع الذي لم يحلق بأي سياسي إسرائيلي. فقد أُجبر شارون على البقاء في الظل عدة أعوام قبل أن يستعين به تكتل ليكود مجدداً وفي الميدان الذي هو اختصاصه، ميدان تقويض إمكانات التوصل إلى سلام مع الشعب الفلسطيني عبر خلق عوائق هي بمثابة أمر واقع يعزل المنطقة عن السلام. إن الأمر الواقع بالنسبة إلى شارون هو المستوطنات التي من الأفضل أن نسميها مستعمرات.

لا بد من أن نتذكر أن رجلاً اسمه أريئيل شارون لم يفعل شيئاً في السنوات العشر الأخيرة غير إقامة المستعمرات، ومشروعه للسلام يقوم على إبقاء هذه المستعمرات في الضفة الغربية وحتى في غزة بهدف جعل الدولة الفلسطينية، التي ستقام من وجهة نظره على نسبة لا تتجاوز 42٪ من أراض الضفة الغربية، مجرد محمية إسرائيلية. وبكلام أوضح إن شارون يبحث عن حل هو نقيض السلام، بل إنه حل يؤدي إلى استمرار النزاع إلى ما لا نهاية، وذلك استناداً إلى نظريته القائلة إن إسرائيل ما زالت تخوض "حرب الاستقلال". وكانت أحداث 11 أيلول / سبتمبر الماضي مناسبة لينتقل شارون في حربه إلى مرحلة جديدة تقوم على تغيير طبيعة الصراع، وذلك عبر تصوير ياسر عرفات بأنه الملا عمر وأسامة بن لادن في آن واحد. هل ينجح في ذلك؟ هذا هو السؤال الكبير، وهو في الوقت نفسه الخوف الكبير في ظل وجود إدارة أميركية بدأت تستخف بالعرب عامة، ولا سيما بعد أن شاهدت الدبابات الإسرائيلية تحاصر الرئيس الفلسطيني وتمنعه من السفر من دون أن يحركوا ساكناً، ومن دون أن يعقدوا ولو قمة مصغرة أو اجتماعاً على مستوى وزراء الخارجية... عقد أخيراً لكنه جاء متأخراً.

ما تنذر به الأيام المقبلة في منتهى الخطورة، ذلك بأن الذي يجري ليس عجزاً فلسطينياً بمقدار ما هو عجز عربي ناجم عن سوء تقدير للأوضاع، وعن سوء فهم للموقف الأميركي وللتحولات التي تشهدها الولايات المتحدة منذ وصول بوش الابن إلى الرئاسة. إنه وضع ينذر بمخاطر كبيرة لأن الرهان الأميركي على شارون أقرب ما يكون إلى رهان على حرب جديدة في المنطقة... في ظل هذه المعطيات، جاء خطاب ياسر عرفات يوم عيد الفطر المبارك في 16 كانون الأول / ديسمبر 2001؛ وهو خطاب تاريخي بكل معنى الكلمة نظراً إلى أنه يشكل محاولة أخيرة لانتزاع المبادرة من رئيس الحكومة الإسرائيلية، في وقت يدرك "أبو عمار" أن الحلف غير المقدس القائم بين شارون والفصائل الفلسطينية المتطرفة حلف حقيقي لا ينقصه سوى اجتماعات رسمية لتكريسه؛ فالإسرائيلي يضرب حين يجب أن يضرب، ويأتي الرد عليه بطريقة تظهره في مظهر الضحية على غرار ما جرى في القدس وحيفا عشية اللقاء الأخير لشارون مع الرئيس الأميركي في البيت الأبيض. كان مفترضاً في هذا اللقاء أن يكون مناسبة للبحث جدياً في موضوع الدولة الفلسطينية الذي اعتمدته الولايات المتحدة، والذي يعترض عليه رئيس الحكومة الإسرائيلية إلاّ إذا كانت هذه الدولة محمية إسرائيلية مزروعة بالمستعمرات، يتولى مواطنوها العمل في خدمة أمن إسرائيل واقتصادها.

فجأة، وبفضل العمليات الانتحارية، تحول اللقاء إلى انتصار شاروني لا سابق له، سمح لرئيس الحكومة الإسرائيلية بالكشف عن الوجه الحقيقي لسياساته، وهو الانتهاء من عملية السلام والدخول في حرب مكشوفة مع السلطة الوطنية الفلسطينية التي رمزها ياسر عرفات. فجأة اكتشف

أريئيل شارون أن في استطاعته تحقيق كل أحلامه، بما في ذلك العودة إلى مشروع "إسرائيل الكبرى" الذي دفنه اتفاق أوسلو، هو الذي عارض هذا الاتفاق مثلما عارض اتفاق كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل سنة 1978.

ما لم يقله شارون علناً، قاله بنيامين نتنياهو، الطامح إلى خلافته، في حديث إلى صحيفة "لوفيغارو" الفرنسية في عددها الصادر يوم 13 كانون الأول / ديسمبر 2001. في هذا الحديث يؤكد نتنياهو، الذي يمتلك حقداً شخصياً على عرفات الذي أخرجه من السلطة: "إن العالم تغير جذرياً يوم 11 أيلول / سبتمبر. إن الفكرة القائلة إن في الإمكان غض الطرف عن الأنظمة الإرهابية عفى عليها الزمن كلياً. هنلك إجماع في واشنطن: إما يتغير عرفات، وإمّا يرحل. إنه الشخص الوحيد في العالم الذي ينتمي إلى فئتين في آن واحد؛ فهو بن لادن وطالبان. إنه مسؤول عن عمليات إرهابية عبر التنظيمات التي يسيطر عليها مثل 'فتح' والقوة 17، ويحمي في الوقت ذاته منظمات إرهابية مثل 'حماس' و'الجهاد الإسلامي'. إني أوافق على قرار الحكومة الإسرائيلية في وصف السلطة الفلسطينية بأنها نظام إرهابي. يجب أن نقول لها ما قاله الرئيس بوش لطالبان: إمّا أن تتخلوا عن الإرهاب، وإمّا أن تتخلوا عن السلطة. على عرفات أن يفهم أن مصيره هو مصير 'طالبان' إذا لم يتحرك."

إن المعنى الحقيقي لهذا الكلام هو أن إسرائيل باتت تعتبر نفسها، وبمباركة أميركية، جزءاً من الحرب على "الإرهاب" التي تشنها الولايات المتحدة. وكان النجاح الحقيقي لشارون في تمكنه من جعل الولايات المتحدة تبتعد عن السلطة الفلسطينية. وذهب في نجاحه إلى أبعد من ذلك عندما أقنع أميركا بالضغط على أوروبا كي تتخذ موقفاً يؤيد إسرائيل في حربها على "الإرهاب".

بعد الخطاب الأخير لياسر عرفات، أدرك رئيس الحكومة الإسرائيلية أنه يمكن أن يفقد المبادرة، لذلك سارع إلى اتكاب مزيد من الجرائم، وانتقل إلى تضمين سياسته القمعية رموزاً جديدة بعدما استهدفت هذه السياسة شخصاً مثل سري نسيبة، الذي اعتقل يوم الاثنين 17 كانون الأول / ديسمبر لفترة قصيرة بحجة أنه أراد تنظيم حفلة استقبال في القدس للقناصل الموجودين في المدينة. كان الهدف من اعتقال سري نسيبة تأكيد أن لا مجال لإعادة فتح ملف القدس كما نص على ذلك اتفاق أوسلو، إضافة إلى ضرب رمز فلسطيني معتدل. فقد امتلك سري نسيبة ما يكفي من الشجاعة ليقول إن قضية اللاجئين الفلسطينيين لا بد من أن تحل بطريقة واقعية تأخذ في الاعتبار وجود دولة إسرائيل. هل اعتقل سري نسيبة، المسؤول عن ملف القدس لدى السلطة الوطنية الفلسطينية، لأنه تجرأ على أن يكون معتدلاً وأن يقول لشارون، بطريقة أو بأُخرى، إن في الإمكان إيجاد حلول لكل القضايا المطروحة، بما في ذلك القضية الأصعب والأكثر تعقيداً، وهي قضية

اللاجئين؟ لعل أفضل تعليق بعد اعتقال سري نسيبة هو الذي صدر عن يوسي سريد، رئيس حزب ميرتس الإسرائيلي، الذي قال: "يبدو أن إسرائيل تخشى الاعتدال أكثر مما تخشى التطرف."

يفترض في هذا التعليق أن يكون كافياً ليتأكد ياسر عرفات من أن مضمون خطابه يوم عيد الفطر كان المضمون الوحيد الذي يصلح لهذه المرحلة. والدليل على ذلك أن هذا الخطاب لم يعجب حركة "حماس"، أي أن هذا الخطاب يصب في المواجهة مع شارون وليس عند ملاقاته في منتصف الطريق بغية تمكينه من تمرير سياسته الهادفة إلى تغيير طبيعة الصراع. فما يجري على الأرض حالياً هو تدمير للبنية التحتية للسلطة الوطنية الفلسطينية، وليس محاولة إنهاء ياسر عرفات سياسياً فقط. والواضح أن شارون يسعى بكل ما امتلك من جبروت وقوة لمنع وجود سلطة فلسطينية معتدلة.

على الجانب الفلسطيني أن يتأكد من أمر واحد هو أن كل الذين قالوا في الماضي إن جورج بوش الابن هو ابن أبيه، إنما أخطأوا في حساباتهم. ذلك بأن الرئيس الأميركي الحالي يدرك أن عليه تفادي الخطأ الذي أدى إلى سقوط والده في الانتخابات أمام بيل كلينتون سنة 1991. وأكثر ما يدركه بوش الابن هو أن اليمين الأميركي، المتحالف مع اليمين الإسرائيلي، يعتبر المسؤول الأول عن هزيمة بوش الأب الذي أراد تجديد ولايته. ومن هذا المنطلق يمكن فهم الأسباب التي حالت دون أن يستقبل بوش الابن ياسر عرفات وأن يتصرف على طريقة أريئيل شارون الذي رفض دائماً أن يصافح الرئيس الفلسطيني، حتى عندما التقيا في واي بلانتيشن عندما كان شارون وزيراً للخارجية في حكومة بنيامين نتنياهو.

سيكون صعباً على السلطة الوطنية الفلسطينية أن تستعيد المبادرة من دون تحرك على الأرض يؤكد أنها تسيطر على الأرض الفلسطينية. ولذلك نجد أريئيل شارون يركز حالياً على منعها من ذلك. لكن ما قد يكون أهم من السيطرة على الوضع الأمني الإقدام على تحرك سياسي يقوم على صوغ مبادرة واضحة تؤكد أن هناك مشروع سلام فلسطينياً، في حين لا وجود لمثل هذا المشروع لدى أريئيل شارون.

مثل هذا المشروع يمكن أن يصنع الفارق حالياً، وأن يعوض الخسائر السياسية التي لحقت بالجانب الفلسطيني منذ أحداث 11 أيلول / سبتمبر. وما يفترض أن نتذكره دائماً هو أن الحملة العسكرية الأخيرة لأريئيل شارون، والتي استهدفت ياسر عرفات شخصياً، جاءت تحت غطاء أن عمليات انتحارية فلسطينية نفذت في القدس وحيفا، لكنها استغلت في الواقع هذه العمليات لتلغي خطاب وزير الخارجية الأميركي، كولن باول، الذي تحدث فيه عن الدولة الفلسطينية، وعن ضرورة إنهاء الاحتلال، وعن التزام إدارته قراري مجلس الأمن 242 و 338 ومبدأ الأرض في مقابل السلام. أراد شارون الرد على هذا الخطاب عبر تغيير طبيعة الصراع وتحويله من مواجهة بين شعب

يريد استقلاله على أرضه الوطنية وبين قوة محتلة، إلى مواجهة بين إسرائيل وقوة "إرهابية" تسعى لإلغاء وجودها.

إذا وجدت السلطة الفلسطينية أن ليس في استطاعتها في هذه المرحلة تقديم مشروع سلام مقبول أميركياً وأوروبياً، انطلاقاً من خطاب باول الذي يتحدث عن حل "عادل وواقعي" لقضية اللاجئين، فمن الأفضل لها أن تدعو إلى قمة عربية تتبنى مثل هذا المشروع مع كل الضمانات التي تريدها إسرائيل من محيطها العربي.

إن ترك شارون ينجح في تغيير طبيعة الصراع العربي – الإسرائيلي هو أخطر ما يمكن أن يحل بالمنطقة، والشجاعة تقضي في هذه المرحلة أن يدعو العرب إلى اجتماع يصدر عنه ما يؤمن للفلسطينيين إحراج رئيس الحكومة الإسرائيلية حيث يجب إحراجه، أي في الساحة الدولية، وفي أميركا نفسها التي لم تعد تميز للأسف الشديد، سوى بين الأسود والأبيض، أي بين من هو معها وبين من هو ضدها. فأين يريد العرب أن يقفوا؟ وما هي النتائج التي سترتب على عدم وقوفهم حيث يجب أن يقفوا؟ هل يكون نجاح إسرائيل في تغيير طبيعة الصراع هو الثمن؟. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx